﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النّور: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستقصاءُ في بيانِ حكمِ استئذانِ الأطفالِ في جميعِ مراحِلِهم

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآية السابقة ما يتعلَّقُ بالاستئذان وحُكمَ الصِّبيانِ والأرقّاءِ الذين هم أطوَعُ للأمرِ، وأقبَلُ لكُلِّ خَيرٍ؛ أتبَعَه حُكمَ البالغينَ مِن الأحرارِ، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾[1]، فبعد بيان حُكم الأطفال من أنَّهم لا يحتاجون إلى الاستئذان في غير الأوقاتِ الثَّلاثة؛ عقَّبَ النظم الجليل ببيانِ حالهم إذا بلغوا؛ دفعًا لِما عسى أنْ يُتوهَّم أنَّهم - وإنْ كانوا أجانبَ - ليسوا كسائرِ الأجانبِ بسببِ اعتيادهم الدخول[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَغَ﴾: (بلغ) الوُصولُ إلَى الشَّيْءِ، تَقولُ: بَلَغْتُ المَكانَ؛ إذا وصَلْتَ إلَيْه، وقَدْ تُسَمَّى المُشارَفَةُ بُلوغًا بِحَقِّ المُقارَبَةِ[3]، وبَلَغَ الغلامُ: أدْرَكَ، واحْتَلَمَ، كأنَّهُ بَلَغَ وقْتَ الكِتابِ عليْهِ والتَّكْليفِ، وبَلَغَ الصَّبيُّ والجاريَةُ؛ إذا أدْرَكا، وهُما بالغانِ، والإبْلاغُ: الإيصالُ، والبَلاغُ: الكفاية[4]، والبَلاغُ والبلوغُ هو الانتهاءُ إلى المقصدِ والمنتهى مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من الأمورِ المقدَّرةِ[5]، ومعنى ﴿بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾، أي: أدركوا السِّنَّ التي يُحكم فيها عليهم بالبلوغِ، أي: احتلموا[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 312.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلغ).
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 254.

2) ﴿ٱلْأَطْفَلُ﴾: (طفل) هو المَوْلودُ الصَّغيرُ، يُقالُ: هوَ طِفْلٌ، والأُنْثَى طِفْلَةٌ، ويُقال لِلمَرْأَةِ النّاعِمَةِ: طَفْلَةٌ، كَأَنَّها مُشَبَّهَةٌ في رُطوبَتِها ونَعْمَتِها بِالطِّفْلَةِ[1]، والطِّفْلُ: الولدُ ما دام ناعمًا، ويُطلقُ على الصَّبيِّ من حين يولد إلى حين يحتلم، والطِّفْلُ: يكون واحدًا وجمعًا، ويُجمعُ أيضًا على أَطْفالٍ[2]، ومعنى ﴿ٱلْأَطْفَلُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: الولدُ من حين يولد إلى أنْ يحتلم.

3) ﴿ٱلْحُلُمَ﴾: (حلم) رُؤْيَةُ الشَّيْءِ في المَنام، يُقالُ: حَلَمَ يَحْلُمُ؛ إذا رأى في المَنام، والحُلم والاحْتِلامُ: الجِماع ونَحْوُهُ في النَّوْم، والاسْمُ الحُلُم[3]، ويُقال: حَلَمَ الرجلُ بالمَرْأَةِ؛ إذا حَلَم في نَوْمِه أنَّه يُباشِرُها، والاحتلامُ يَحْصُلُ بِهِ البُلوغ في حقِّ الرَّجُلِ، وحلَمَ الصَّبيُّ: أدركَ، وبلغَ مبلغَ الرِّجال[4]، والحُلُمُ: زمنُ البلوغ، وسُمّي الحُلُمُ؛ لكونِ صاحبهِ جديرًا بالحلم[5]، والمراد هنا في الآية: سنُّ الاحتلام والبلوغ[6].

4) ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾: (أذن) أصلٌ يدلُّ على العِلْم والإعلام، تقولُ العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمرِ، أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فلانٌ: أعلمني[7]، والإِذْنُ: الإطلاقُ في الفِعْلِ بعد منعٍ، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ لهُ فعلَهُ، وأَذِنَ لَهُ في الشَّيءِ: أَباحَهُ لَهُ[8]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[9]، والإِذْنُ يأتي بمعنى الإباحةِ، أو القبولِ والتَّمكين، مع العلم بقدرِ ما مُكِّن فيه[10]، ومعنى ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: فليطلبوا الإذنَ في الدُّخول عليكم؛ إنْ أرادوا الدُّخول[11].

5) ﴿يُبَيِّنُ﴾: (بين) أصلٌ واحد، وهو بمعنى البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ والتَّوضيحِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طفل).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طفل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(4) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حلم).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حلم).
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 429.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(8) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(9) الراغب، المفردات: (أذن).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أذن).
(11) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 429.

وبانَ الشَّيْءُ، وأَبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانْكَشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[1]، والبَيانُ: الفَصاحَةُ واللَّسَنُ، وقيل: البَيانُ إظْهارُ المَقْصودِ بأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القَلْب مَعَ اللَّسَن، والبَيانُ أَيْضًا ما يَتَبَيَّنُ بِهِ الشَّيْءُ مِنَ الدَّلالَةِ وغَيْرِها[2]، ومعنى يُبَيِّنُ لكم آياتِهِ، أي: أعلامُهُ، أَي: يبيِّن لكم الأعلامَ التي تحتاجون إليها، وتعرفون ما يسعُ لكم ممّا لا يسع، وما يُؤتى ممّا يُتَّقى[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعليمُ الأطفالِ البالغين الثِّقةَ والعفَّة من خلال آداب الاستئذان

تُبيِّن الآية تمامَ بعضِ الأحكامِ والآدابِ التي شرَعها الله تعالى لعبادِه، عند بلوغِ الصِّغار مَبلغَ الرِّجالِ، أي: الاحتلام، فعليهم أنْ يَستأذِنوا في كلِّ الأوقاتِ استئذانَ الرِّجال البالِغينَ من أولادكم وأقربائكم الأحرار، أي: فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ إلّا بإذن، لا في أوقاتِ العوراتِ الثلاث ولا في غيرها، هكذا يبيِّن اللّهُ لكم آياته وأحكامه وشرائع دينه، كما بيَّن لكم أمرَ هؤلاء الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغ، واللّهُ عليمٌ بما يُصلحُ خلقَهُ وغير ذلك من الأشياء، حكيمٌ في تشريعِه وتدبيره[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في مطلع الآية:

عطفُ حُكمٍ على آخرَ، مُبينٌ للمُراد من السّياق المستفاد

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ معطوفٌ على الآية السّابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور: 58] بجامعِ أنَّ كليهما في حكمِ الاستئذان في البيوت، إلا أنَّ الآيةَ السابقة في حكمِ استئذان الأرقّاء والأطفال الذين لم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) الرازي، مختار الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 592.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215.

يبلغوا الحُلُمَ، وأمّا هذه الآية؛ فهي في حكمِ استئذان هؤلاء الأطفال بعد أنْ يبلغوا الحُلُمَ، دون الأرقّاءِ الذين لم يتغيَّر حُكمهم بالبلوغ[1].

ويحتملُ أنْ تكونَ الواو استئنافيةً[2]، استأنفتْ حكمًا جديدًا؛ فبعد بيان حُكم الأطفال الصغار، استأنف النَّظم حكمًا جديدًا وهو تعليم هؤلاءِ عند البلوغ آداب الاستئذانِ، ووجه الاستئناف أنَّ الآية السابقة خطابٌ للمكلَّفين الكبار في كيفيَّة التعامل مع الصغار، والآية الثانية إخبارٌ بحكم تكليفي عندما يكبر الصغار.

نكتةُ تعليقِ الشرط بـ (إذا) الشَّرطيَّة:

اشـتراطُ آدابِ الاستئذان حالةَ بلـوغِ الأطـفال الحُلُمَ

جاء استعمالُ أداة الشرط (إذا) التي تدلُّ على تحقُّق الوقوع دون (إنْ) التي تدلُّ على مظنَّة تحقُّقه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ لأنَّه الأنسبُ في قطعيَّة وقوع حكم البلوغ لمجمل الأطفال، وليس هذا هو المقصود وحدَهُ؛ لأنَّه أمرٌ فطريٌّ مركوزٌ في فطرة الناس جميعًا، وإنَّما المقصودُ هو تحقيقُ الحكم التكليفي، وهو الاستئذانُ في دخول البيوتِ، كما تحقَّق لمن سبقهم من الناس، وفيه إيماءٌ إلى ضرورة تربيتِهم وإرشادهم وتعليمهم ما يجب عليهم أن يقوموا به، قبل بلوغِ هذا السنِّ؛ لما تدلُّ عليه (إذا) من معنى الاستقبال.

بلاغةُ لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ في السّياق:

الاستئذانُ منوطٌ ببلوغِ الحُلُمِ؛ حـفـاظًـا عـلى محاسن القيم

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿بَلَغَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (وصل)؛ وذلك لاتِّساع دلالة ﴿بَلَغَ﴾، ولكونها أنسبَ للسياق؛ إذ أصلُ مادة ﴿بَلَغَ﴾ تدلُّ على الوُصول إِلَى الشَّيْءِ، كأَنَّهُ بَلَغَ وقْت الكِتابِ عليْهِ والتَّكْليف، والبَلاغُ والبلوغُ هو الانتهاءُ إلى المقصدِ والمنتهى مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 312.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 650.

الأمورِ المقدَّرةِ[1]، وهذه المعاني كلُّها تتناسب مع السياق الذي يوجبُ حكمَ الاستئذانِ على الطِّفلِ الذي انتهى من مرحلةِ الطفولةِ، ووصلَ إلى سنِّ البلوغِ ومرحلة الإدراك؛ ليصبحَ في حكمِ الكبار، فلا يدخل بغير استئذان؛ لِما يجرُّ ذلك من كشفٍ للعورات، وليكون اسمُ البلوغ ملتصقًا بأحكام تكليفيَّة شرعيَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

إذا تحقَّق البلوغُ الشَّرعيُّ؛ تعيَّنت أحكام الاستئذان

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل الماضي ﴿بَلَغَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ البلوغِ منهم؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ على حدثٍ وقع ومضى وانقضى، وهذا يدلُّ على أنَّ وجوبَ الاستئذان، متعلِّقٌ بتحقُّق بلوغهم، فإذا تحقَّق البلوغُ؛ تحقَّقت أحكامه.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ أداة التَّعريف، توسُّعٌ في معاني السّياق المنيف

اللام في لفظ ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذكريٌّ بغيرِ لفظه، وهو ما مرَّ في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ﴾ [النّور: 58]، أي: المقصود الأطفال المعهودون الذين جُعلوا قسيمًا للمماليك، أي: إذا بلغَ الأطفالُ الأحرارُ[2]، ويؤكِّد كونَ اللام للعهد الإتيانُ بالتشبيهِ لبيان كيفيَّة استئذان هؤلاء، وذلك التَّشبيهُ لا يتسنّى إلّا بتشبيههِ باستئذان المعهودين عندَ السّامعِ[3]، وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّها جنسيَّة، وهو جمع محلّى بـ(أل)، فيعمُّ كلَّ الأطفال الأحرار والمماليك، فيجبُ الاستئذانُ على من بلغَ من الفريقين، ومن قال بذلك؛ أوجبَ استئذانَ العبدِ البالغ على سيِّدته[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 312، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.

نكتةُ جمع لفظ ﴿ٱلۡأَطۡفَلُ﴾:

أحوالُ البالغين بين الجمع والإفراد، منبئةٌ عن البيان المراد

آثر النَّظمُ القرآنيُّ جمعَ لفظ ﴿ٱلۡأَطۡفَلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَلُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الأطفالَ بعد البلوغ قد تكوَّنت لديهم الميول الغريزية، ولكلِّ واحدٍ منهم ميولُهُ وشخصيَّتُهُ وشطحاته، بخلافِ الأطفال قبل البلوغ، فإنَّه لم تتكوَّن لديهم الغريزة، وليستْ لهم هذه الميول أو المآرب، فكأنَّهم واحدٌ، فهم بهذه المنزلة نظرتُهم واحدة، ولذلك عبَّر عنهم باللفظ المفرد في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31][1]، فلمّا اختلف الاعتبارُ؛ اختلف الجمع والإفراد.

دلالةُ (مِنْ) في شبه الجملة ﴿مِنكُمُ﴾:

بيانُ أنَّ المخصوصين بالاستئذان هنا، هم الأحرارُ لا العبيد

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَلُ مِنكُمُ﴾ بيانيَّةٌ؛ فلفظ الأطفال يشملُ الأحرار والمماليك، فبيَّن بقوله: ﴿مِنكُمُ﴾ أنَّ المراد من الأطفالِ، ما هم من الأحرار المخاطَبين؛ ليؤكِّد اختصاصه بهم، لقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ [النور: 58][2]، والمعنى: أنَّ الأطفال من أولادكم وأقاربكم مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذنٍ إلّا في العوراتِ الثلاث، فإذا اعتادَ الأطفال ذلك، ثم خرجوا من حدِّ الطفولة بأنْ يحتلموا، أو يبلغوا السنَّ التي يُحكم فيها عليهم بالبلوغ؛ وجبَ أنْ يُفطَموا عن تلك العادة، ويُحملوا على أنْ يستأذنوا في جميعِ الأوقات، مثل الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدُّخول عليكم إلّا بإذن، وهذا ممّا الناسُ منهُ في غفلة[3]، ولذا أكَّدت عليه (مِن) البيانيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾:

بلوغُ أوانِ الاحتلامِ، يجري على البالغ جميع الأحكام

يدلُّ التَّعبيرُ بلفظِ الحلُمِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَلُ مِنكُمُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10334.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 145.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 146.

ٱلْحُلُمَ﴾ أنَّ البيانَ القرآنيَّ قد جعل حدَّ التكليف ببلوغ الصبيِّ الحلُم، سواءٌ برؤيةِ الشَّيءِ في المنام، أو بالإدراك وبلوغِ الطفلِ مبلغَ الرجال بظهورِ علامتهم عليه، أو ببلوغِه سنًّا يبلغُ فيها الأطفال عادةً؛ لأنَّ المعنى اللغوي للحلم يشملها جميعًا[1]، وقد ورد في السُّنَّة ما يؤكِّد كونَ التَّكليف يبدأ بالحلم؛ إذ قال ﷺ: «رُفِعَ القلم عن ثلاثة ... وعن الصَّبي حتى يحتلمَ»[2].

دلالةُ (الفاء) ووظيفتها:

المسارعةُ إلى الاستئذان واجبةٌ بعد بلوغ الإنسان

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وتدلُّ على ضرورةِ سرعةِ تحقُّق فعل الاستئذان من الأطفال بمجرَّدِ وقوع فعل الشَّرط؛ وهو حصولُ البلوغ عندهم، وهو يدلُّ على أنَّ المسارعةَ في الاستئذان المترتِّب على بلوغ الحلم لا ينبغي التَّساهل فيه، أو التغافل عنه، وقد تساهل النّاس في هذا الحكم، وغفلوا عن خطورته.

نكتةُ الأمرِ بالاستئذان ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾:

علَّةُ وجوبِ الاستئذان، درءُ الفتنةِ والاحتياط للأعراض

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ للوجوب، وتاركهُ عاصٍ، وهو مستعملٌ في معناه الحقيقي، لكونِ الرجال المشبَّه باستئذانهم لا يُعدّون من الطوافين، ولكن يُعدّون من الداخلين على البيتِ الذين يجب عليهم الاستئذانُ قبل الدخول فيه، ولو كانوا داخلين على آبائهم وأمهاتهم، ويؤكِّد ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أوجبَ على الرَّجل أنْ يستأذنَ على أمِّه، فإنَّ الاستئذانَ يُطلبُ من الرجال على كلِّ حال[3].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حلم).

(2) سنن أبي داود، كتاب الحدود، رقم: (4401).

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5228.

تعيينُ مرجعِ ضمير ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾:

ضميرُ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ يعودُ إلى الأطفال الذين بلغوا الحُلُم؛ لأنَّه قد سبق ذكرهم في الآية، وعودُ الضَّميرِ ربْطٌ للآية بما قبلَها في اتِّساق وبيان.

دلالةُ حذفِ متعلِّق فعل الاستئذان:

بيانُ أهميَّةِ عمومِ المتعلَّق في الأشخاصِ والأزمان

حذفَ النَّظمُ الحكيم متعلِّقَ فعل الاستئذان في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾؛ إذ التقدير: فليستأذنوا عليكم في الدُّخول؛ للإيماءِ إلى عمومِ المتعلَّق في الأشخاص والأزمان، أي: ليستأذنوا على جميعِ الناس في جميعِ الأوقات[1]، وفي هذا الحذفِ إيماءٌ إلى أنَّ النّاس ستغفل عن هذا الحكم، وأنَّ المطلوب أن يكونَ الاستئذان فعلًا لازمًا لهم في كلِّ أحوالهم ما داموا قد بلغوا.

نكتةُ العدولِ عن الخطاب إلى الغيبة:

الخطابُ بالأحكامِ للمكلَّفين، لا للأطفال غير المميّزين

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبير بصيغة: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ على الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ ولم يقلْ: (فليستأذنوكم) على الخطاب، كما في الآية التي قبلها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور: 58]؛ وذلك لأنَّ الأطفالَ في آية خطاب الأولياء غير مكلَّفين، فالخطابُ للمكلَّفين وهم أولياؤهم، فآباؤهم وأمَّهاتهم هم من يعلِّمهم تلك الآدابَ، فالأمانةُ في رقابهم والواجبُ منوطٌ بهم، بخلافِ آية ضمير الغيبة فالأطفالُ قد بلغوا الحلم، وصاروا أهلَ تكليف، وصارت المهمَّةُ في أعناقهم، والأمانةُ في رقابهم، فكان التَّكليفُ منوطًا بهم، فجاء الضَّمير غيبةً.

دلالةُ الكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾:

(الكاف) حرفُ تشبيهٍ وجرٍّ، في حيِّز النَّصبِ على أنَّه نعتٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 312.

لمصدرٍ مؤكِّدٍ للفعل السّابق، والتقدير: فليستأذنوا استئذانًا كائنًا مثلَ استئذانِ المذكورينَ قبلهم بأنْ يستأذنوا في جميعِ الأوقاتِ[1]، وفي هذا النَّعتِ بيانٌ لهذ الاستئذانِ الواجبِ المؤكَّدِ على الأطفال الذين بلغوا الحُلُم.

تربيةُ الصِّغارِ على الامتثال على شاكلةِ سابقيهم من الكبار

دلالةُ (ما) على المصدريَّةِ في السّياق:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ مصدريَّةٌ، والمصدر المؤوَّل من (ما) والفعل ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ في محلِّ جرٍّ بالكاف متعلِّقٌ بمحذوف مفعولٍ مطلقٍ عامله ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾، والتقدير: فليستأذنوا استئذانًا كاستئذانِ الذين من قبلهم، وقد قوّى البيانُ القرآني الاستئذان بالمصدر المؤوَّل وزاده بيانًا؛ لأنَّهُ أقوى وآكدُ في الدَّلالة على الحدثِ من المصدر المجرَّد؛ لكون فعل استأذن ماضيًا يفيدُ تحقُّق الوقوع وانقضائه.

(ما) المصدريَّةُ تقويةٌ وزيادةُ بيانٍ لمعنى الاستئذانِ

بلاغةُ التَّشبيهِ ووظيفته التَّشريعيَّة:

المرادُ من التَّشبيهِ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، إلحاقُ من بلغ جديدًا بمن تقدَّم بلوغه في وجوبِ الاستئذان؛ لأنَّه قد يظنُّ ظانٌّ أنَّ من خدمَ في حالِ الصِّغر، فإذا بلغ يجوز له ألّا يستأذنَ، ويفارق، حالُهُ حال من لم يخدم، ولم يملكْ، فبيَّن تعالى أنَّه كما حظرَ على البالغين الدُّخول إلّا بالاستئذان، فكذلك على هؤلاء، إذا بلغوا، وإنْ تقدَّمتْ لهم خدمةٌ، أو ثبتَ فيهم ملكٌ لهنَّ[2]، فالتَّشبيهُ في هذه الآية له حكمُ القياس على متقدِّم، وإلحاق فرع جديد بأصل قديم.

ملمحُ إلحاقِ فرعٍ جديد بأصلٍ قديم؛ قياسًا لاتِّحاد العلَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾:

عبَّرَ النظمُ الكريم بالفعل الماضي ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ في قوله تعالى:

الأمرُ بالاستئذانِ لما هو معلومٌ مشاهدٌ، لا لمبهمٍ خفيٍّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 650، والخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 805.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 419.

﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾: إظهارًا لكون حكمِ استئذان البالغين، هو حكمٌ قديمٌ ثابتٌ قد وقعَ، وهو معروفٌ لدى المخاطَبين من الأطفال الذين بلغوا الحلمَ، فهم يعرفونه؛ ذلك لأنَّ الماضي يدلُّ على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التكلُّم، فالتَّشبيه لم يكن بأمرٍ غامضٍ، أو مبهمٍ، أو خفيٍّ، بل بأمرٍ ظاهر واضحٍ بيِّنٍ، وهذا ما يجعل التَّشبيه ذا دلالةٍ فقهيَّة تربويَّة.

دلالةُ تعلُّقِ قيد ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ بمحذوفٍ:

بيانُ تقديرِ المحذوف، باعتبارِ سابق ذكرهم أو بلوغهم

تعلَّق قيد ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، بمحذوفٍ مقدَّرٍ، أي: (كما استأذن الذين ذُكروا من قبلهم) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: 27]، فالمقصود بالقبليَّة أنَّهم مذكورون قبلهم[1]، ويجوز أنْ تكون القَبْليَّةُ باعتبارِ الوصفِ لا باعتبارِ الذِّكرِ في النظم الجليل، بقرينة ذكرِ البلوغ وحكم الطفوليَّة، أي: (الذين بلغوا من قبلهم)[2].

بلاغةُ استعمالِ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تنوُّعُ تأويل الحرف انفساحٌ في المعاني المتاحة

اختلفَ العلماءُ في دلالة الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، فمنهم من ذهبَ إلى أنَّها كافُ تشبيهٍ رُكِّبت مع اسم الإشارة، فيتعيَّن تعرُّف المشار إليه وما هو المشبَّه به، أي: مثل ذلك البيان العجيب الَّذي طرقَ أسماعكم في آيات الأحكام يبيِّن اللّٰهُ لكم، ومنهم من يرى أنَّها اسمٌ بمعنى (مثل) منتصبٌ على المفعوليَّةِ المطلقةِ لـ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: مثل البيانِ العجيب يبيِّن اللّٰهُ لكم، فليس تشبيهًا، ولكنَّه تمثيلٌ لحالةٍ، ومنهم من يرى أنَّ الكاف مقحمةٌ للتوكيد، لا تدلُّ على تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، فيصير اسمُ الإشارة على هذا نائبًا منابَ مفعولٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 195.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 406.

مطلق لـ﴿يُبَيِّنُ﴾، كأنَّه قيل: ذلك البيانُ يبيِّن اللّه لكم، أي: فعدلَ عن المصدر إلى اسم إشارتِهِ النائب عنه؛ لإفادةِ عجابةِ هذا البيان بما في اسمِ الإشارة من علامة البعد المتعيَّن فيها لبعد المرتبةِ، والتشبيهُ على هذا الوجه مقصودٌ منه المبالغة بإيهام أنَّه لو أراد المشبِّه أنْ يشبِّهَ هذا في غرابته؛ لَما وجد له إلا أنْ يشبِّهه بنفسه[1].

تعيينُ مرجعِ اسم الإشارة (ذلك):

بلوغُ غاية كمالِ المشبَّه أن يُشبَّهَ بنفسِه

يرجعُ اسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ إلى البيانِ الذي بيَّنه في آياتِ الأحكام، والمعنى: مثل ذلك البيانِ الذي طرقَ أسماعكم يبيِّنُ اللّهُ لكم الآيات، فبيانُهُ بالغٌ غايةَ الكمالِ حتى لو أُريدَ تشبيهُهُ؛ لَما شُبِّه إلّا بنفسه[2].

وفي تكرير هذا البيان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ الاستئذان أتقنُ حاسمٍ لمواد الشرِّ، وتركها أعظمُ فاتحٍ لأبوابِ الفتن، وأنَّ إخراجَ الكلام في أحكام الحلال والحرام مع التَّهذيب والبيان من الفخامة بمكان، وأنَّ قطْمَ النُّفوسِ عمّا ألفتْ في غايةٍ من العسرِ شديد، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى أنَّ آيات الاستئذان - لِما لها من العلوِّ - جديرةٌ بالتأكيد[3].

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

(ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ اسمُ إشارةٍ للبعيد؛ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ أحكام الاستئذان[4]، فالاستئذانُ أدبٌ راقٍ ورتبةٌ في الالتزام عليَّةٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾:

وضـــــوحٌ وانـكـشـافٌ يـنـاسـبُ اسـمَ الـسّـــورةِ و أحكامها

عبَّرَ النظمُ الكريم بلفظ التبيين في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/ 15، 18/ 292.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 292.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 313.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 15، 18/ 292.

ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾، الدّال على معنى البُعدِ والانكشاف والظهور والتوضيح[1]، وهذه المعاني تتناسب مع اسم السورة (النور) ومعنى النّور هو الظهور والضياءُ والوضوح[2]، ويناسبُ أيضًا مضامينَ السورة وما جاء فيها من أحكام واضحةٍ مفصَّلة في نظمها ومضمونها، وفي مقصدها وهو إخراجُ النّاس من الجهلِ إلى النّور، ويناسبُ الحكم الواضحَ الظاهرَ في الآية، وهو وجوبُ الاستئذان؛ إذا بلغَ الطفلُ الحلم.

براعةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

تـجـدُّدُ بـيـانِ القرآنِ وبرهانه المواكب للحياة، كأنَّما أُنزل الآن

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغة الفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ دونَ الفعل الماضي، - ومقتضى الواقع أنَّ البيان قد تحقَّق ووقع - للإيماء إلى أنَّ هذا البيان مستمرٌّ متجدِّدٌ مصلحٌ لكلِّ زمان ومكان، فإذا طلب العالم المتدبِّر بيانَ الله تعالى؛ وجده، بقطع النظر عن الزمان والمكان، فتومئ الصيغةُ إلى أنَّ نظم القرآن لا يُصيبه الهرمُ المعرفي كما هو في كثير من النصوص، بل هو جديدٌ، كأنَّما أُنزل الآن، وفيه دعوة للنَّظر والتَّأمل والتدبر، فإنَّ نفعَ هذه التشريعات الأسرية وما تحقِّقُ من طُهرٍ ومودَّةٍ ورحمةٍ، تكون بذلك منحةً للمخاطَبين، ولمن جاء بعدَهم، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن الكريم.

دلالةُ تعريفِ المسند إليه بلفظِ الجلالة:

صفاتُ العظمةِ والجلالِ دالَّةٌ على كمالِ شرعِ الله وعلوِّه

جاء المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الدالِّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها؛ إظهارًا لِما له سبحانه من صفاتِ الكمال والعظمة والجلال، بما يشيرُ إلى كمالِ ما شرعَهُ سبحانه وعلوِّهِ من أحكامِ الاستئذان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نور).

التي هي أتقنُ حاسم لمواد الشرِّ، وتركُها أعظمُ فاتحٍ لأبوابِ الفتن، وذلك للمخاطَبين مع ما لهم من خِلال النقص[1].

نكتةُ تقديمِ القيدِ على المفعول:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، على المفعول به ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ للامتنان، فهو بيانٌ للمخاطَبين، وفي البيان منَّةٌ عظيمة؛ إذ لم يُنزل كتابًا خافيًا على النّاس، وتشويقًا للمؤخَّر، وهي الآياتُ الشريفة التي أضافها لذاته سبحانه، واهتمامًا بالمقدَّم، وإيثارًا لهم بالخطاب، أي: لكم دون غيركم؛ وذلك للمُبالَغةِ في حَملِهم على العملِ بمضمونِ أحكام الاستئذان؛ لأنَّ من شأن المرءِ الاعتِناءَ بشأنِ نفْسِهِ، والاهتمامَ بتحصيلِ مَنافِعِه.

بيانُ أنَّ الامتنانَ على المخاطَبين؛ لبعث لواعج التَّشويق للأمر

نكتةُ جمعِ لفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جُمِعَتِ الآياتُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ الجمعَ المعرَّف بالإضافة من صيغ العموم، وللدَّلالةِ على تعدُّدِ هذه الآيات، وتجدُّدها، ويرسِّخُ العمومَ والكثرةَ التعبيرُ بالجملةِ الفعلية المضارعيَّة الدّالَّة على الاستمرارِ التجدُّدي.

البيانُ يلفُّ جميعَ آياتِ القرآن البليغة

نكتةُ إضافةِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ إلى الضَّمير:

أُضيفت الآياتُ إلى الضَّميرِ العائد إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بيانًا لهذه الآيات، بأنَّها العلاماتُ الدّالَّة على اللهِ من هذه الفرعيّات وما رقَتْ إليه الأصليات[2]، وتخصيصًا لها باللّه، وتشريفًا لها[3]، وتعظيمًا لشأنها، "وحثًّا على تدبُّر ما تقدَّم منها؛ لاستحضار ما دعتْ إليه من الحكم، وفصَّلت به من المواعظ، وتنبيهًا على ما فيها من العلوم النافعة دينًا

بيانٌ لعِظَمِ شأنِ آياتِ الاستئذانِ، وشرفِ معانيها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195.

ودنيا"[1]؛ مبالغةً في طلبِ الالتزام بها، وترهيبًا من التَّهاون في شرعه تعالى، وتفنُّنًا في الكلام، ولتقويةِ تأكيدِ معنى كمالِ التَّبيين الحاصل من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وتأكيدِ معنَى الوصفينِ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: هي آياتٌ مِن لَدُن مَن هذه صِفاتُه، ومَن تلك صِفاتُ بَيانِه[2].

توجيهُ المتشابه في التَّعريف بـ (أل) والإضافة:

العهْدُ ناسَبَ المُعتبَراتِ الواضحةَ، والإضافةُ ناسبتْ سياقَ تعظيمِها

خُتِمَت هذه الآيةُ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ بالإضافةِ إليه، وخُتِمَتْ ما قبْلَها واللاحقة لما بعْدَها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ﴾ [النور: 58]، بالتَّعريفِ بـ (أل)، ووجْهُهُ: أنَّه لَمّا تقارَبَ اللَّفظُ الواحدُ؛ عدَلَ عن تَكرارِه بلفْظٍ واحدٍ فيما تقارَبَ، على عادةِ العرَبِ في استثقالِ تكرُّرِ اللَّفظِ الواحدِ بعَينِه فيما تقارَبَ من الكلام، ما لم يَحمِلْ على ذلك حامِلٌ من المعنى، فجيءَ باللفظِ في الآياتِ في الأولى مُعرَّفًا بالألفِ واللّام للعهْدِ، فيما تقدَّمَ من المُعتبَراتِ الواضحةِ الدَّلالةِ، وفي الآيةِ الثّانيةِ مُضافًا إلى الضَّميرِ المُتَّصلِ؛ لتَحصُلَ نِسبةُ الآياتِ لِمَن هي له تعالى، وكانت الثّانيةُ هي المُضافَةَ؛ لأنَّها مع ما تُعطيه مِن النِّسبةِ مُبيِّنةٌ للأولى بَيانًا تأكيديًّا؛ إذ مِن المعلومِ أنَّها آياتُه سُبحانه، فجاء ذلك على ما يجبُ، ومِن الواردِ على هذا الرَّعْيِ - واللهُ أعلَمُ - قولُه في سورةِ البقرة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]، ثمَّ قال تعالى بعدَ آيٍ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: 221]، فهذا مِثْلُ الواردِ في سورةِ البقرة[3].

دلالةُ (الواو) في السّياق المحكم:

الجملةُ الاعتراضيَّةُ توكيدٌ لبيان كمالِ الآيات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ اعتراضيَّةٌ، والجملةُ بعدها معترضةٌ، وفائدتها تقويةُ الكلامِ الَّذي اعترضتْ بين أجزائه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 296.
(3) الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 373.

وتوكيدٌ لمعناه؛ إذ الاعتراضُ جارٍ عند العرب مجرى التَّأكيد[1]، أي: مبالغةً في بيانِ كمالِ بيانه لآياته سبحانه، والمعنى: يبيِّن اللّهُ لكم الآيات بيانًا كاملًا، وهو عليمٌ حكيم، فبيانُه بالغٌ غايةَ الكمال لا محالة[2].

نكتةُ إظهار الاسم الجليل (الله):

تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المستأذنين مِنَ الله العليم الحكيم

جاءَ الاسمُ الجليلُ (اللّه)، مُظهرًا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فلم يقلْ: (وهو العليم الحكيم)؛ تربيةً للمهابة في قلوبِ المخاطَبين، وإدخال الروعة فيها؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم من مخالفة أحكام الاستئذان، ومناسبةً لسياقِ التَّعظيم سواءٌ بذكر الاسم الجليل في الآية ذاتها ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾، أم في إضافة الآيات إلى ضمير الجلالة ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، أم بذكر اسم الإشارةِ للبعيد؛ لبيانِ عظمة آياتِ اللّه سبحانه.

سرُّ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

العِلمُ بالأحكام مقدِّمةٌ للعلم بحكمتها

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ العِلم على صفة الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ مناسبةً للسياقِ الذي هو بالعلمِ أولى، فالسياقُ سياقُ تبيينٍ وتعليمٍ لأحكامِ الاستئذان، وليس سياق جزاءٍ وحساب، وكذلك هو من بابِ تقديمِ السَّببِ على المسبَّب؛ فإنَّ معرفةَ أحكامِ الاستئذان وعلمها أسبقُ من تأمُّل حكمتها وسرِّ إحكامها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

عظمةُ علمِ الله وحكمته أدعى للالتزام بأمرِهِ وشرعِهِ

نُكِّرَتْ صفتا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّفخيم والتَّعظيم لعلمِ اللّهِ المحيط، وحكمته فيما يشرِّعه، فاللّهُ عليمٌ بأحوالكم ظاهرها وباطنها، وحكيمٌ فيما شرع، وأمر، فهو يبيِّن لكم الأحكامَ، وما يليقُ بكلِّ حال، إذًا عظمةُ علمِه وفخامة حكمته سبحانه أدعى لالتزامِ المخاطَبين بشرعه.

(1) ابن جنيّ، الخصائص: 1/ 336.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

نكتةُ حذفِ متَعلَّقِ الاسمين الجليلين:

عِلْمُ العبدِ بعلمِ اللهِ وحكمته، يـوجـبُ الثِّـقة بأحكامِهِ

حُذِفَ متعلَّق الاسمين الجليلين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فلم يقل: عليمٌ بحالكم، حكيمٌ بتشريعه استئذانَ البالغين؛ للإشعارِ بالعمومِ والشمول، فهو عليمٌ بحالكم وأقوالكم وأفعالكم ونياتكم وما ينفعكم وما يضرُّكم، بل عليمٌ بأحوالِ كلِّ النُّفوس وبما يصلحها من آداب، حكيمٌ في كلِّ ما يشرعه سبحانه من أحكام، وهذا العمومُ فيه من التَّحذير ما فيه، فاللهُ مطَّلعٌ على جميعِ ما تفعلونه سرًّا وجهرًا، وذلك يوجبُ على العبدِ الخوفَ منه والالتزامَ بأحكامه، وفيه من التَّطمينِ للمخاطَبين والتَّحفيزِ للعملِ بحكمِ الاستئذان ما فيه، فهو عليمٌ بما ينفعهم، وحكيمٌ بما يشرعه ممّا يصلحهم.

فائدةُ اقترانِ صفتَي ﴿عَلِيمٌ﴾ و﴿حَكِيمٌ﴾:

بيانُ علمِ اللهِ بالنُّفوسِ، ترغيبٌ في الالتزامِ بأحكامه

التَّذييلُ بالاسمين الجليلين (العليم) و(الحكيم) تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ الكلامِ قبلَهُ، ممجِّدٌ له، وأنَّه كائنٌ وفقَ علمِه وحِكمتِه؛ فبعد أن بيَّن أحكامَ استئذان البالغين بما يحقِّق حفظًا للعورات، وسدًّا لأبوابِ الفساد؛ عقَّب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ علمِ اللهِ بنفوسِ البشر، وما يصلحها من الآداب، ومقامُ حكمته كذلك في علاجِ النُّفوس والقلوب، وللإشارة إلى زيادةِ التَّرغيب في العلمِ والحكمة اللَّذين تتضمَّنهما هذه الآيات المليئة بالعلوم النافعة دينًا ودنيا، وبالحِكَم الساطعة، وأنَّ ذلك هو سببُ كلِّ سعادة[1]، بما يحفِّز المخاطَبين بالالتزام بها، وعدم الإعراض عنها.

نكتةُ تكرارِ الفاصلة مع الآية السّابقةِ:

تحفيزُ الأذهان؛ للـيـقـظـة إلـى أحـكـام الاستئذان

تكرَّر قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، في فاصلة الآية السّابقة وهذه الآية؛ لكون الغرض من الكلامين واحدًا، وهو بيانُ أدبِ الاستئذانِ؛ ولأنَّ المناسبة في الموضعين واضحةٌ، فالمعنى: اللهُ عليمٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.

بما فيه صلاحكم، حكيمٌ فيما شرعه لكم، وقد جاء هذا التَّكرار بألفاظٍ واحدةٍ؛ تأكيدًا لمعنى كمالِ بيانه لآياته سبحانه، وزيادةً في الاهتمام بها، وامتنانًا بما تحمله من خير[1]، ومبالغةً في الأمرِ بالاستئذان، وامتثالِ المكلَّفين بما أُرشدوا إليه من الالتزام بأحكامه، وتأكيدًا للإنذار من المخالفة[2]، ولما في هاتين الصِّفتين من التَّلويح بأنَّ العباد يتهاونون في أحكام الاستئذان، فكان تكرارُ الفاصلة بمنزلة همز الأذهان؛ لليقظة إلى أحكامِ الاستئذان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطِّفل والغُلام والصَّبي:

الطِّفلُ هو المولود، والصَّبيُّ هو الولدُ المميِّز، والغلامُ من قاربَ سنَّ البلوغِ

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ (الطِّفل، الغلام، الصبي)؛ إذ جميعها تُطلق على الولد إلى أنْ يحتلم، ولهذا قد يُستعمل أحدها موضعَ الآخر، إلا أنَّنا إذا رجعنا إلى المعنى اللغوي لكلٍّ منها؛ نلحظ أنَّ بينها فروقًا دقيقةً تميِّز كلَّ لفظ عن الآخر، كما سيأتي:

أصلُ الطفل: المَوْلودُ الصَّغيرُ، يُقالُ: هوَ طِفْلٌ، والأُنْثَى طِفْلَةٌ، ويُقال لِلْمَرْأَةِ النّاعِمَةِ: طَفْلَةٌ، كَأَنَّها مُشَبَّهَةٌ في رُطوبَتِها ونعْمَتِها بِالطِّفْلَةِ[3]، والطِّفْلُ: الولدُ ما دام ناعمًا، ويُطلق على الصَّبي من حين يولد إلى حين يحتلِم، والطِّفْلُ: يكون واحدًا وجمعًا، وقد يجمع على أَطْفالٍ[4].

وأصلُ الغلام يَدُلُّ على حَداثَةٍ وهَيْجِ شَهْوَةٍ، مِنْ ذَلِكَ الغُلامُ: هوَ الطّارُّ الشّارِبِ[5]، والغُلامُ: الابْنُ الصَّغيرُ، ويُطْلَقُ الغُلامُ على الرَّجُلِ مَجازًا[6]، أو هو الصَّبيُّ حين يولَدُ إلى أنْ يَشبَّ أو حين يقاربُ سنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 295.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 407.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طفل).
(4) الراغب، المفردات، ص: 521، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 409.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلم).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (غلم).

البلوغ[1]، وقيل: الولدُ غلامٌ من ولادته إلى أنْ يحتلِمَ، وأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامهُ، أي: بلوغُهُ حالةَ الرغبة في الأنثى[2].

وأصلُ الصَّبي يدلُّ على صِغَرِ السِّنِّ، يُقالُ: رأَيتُه في صِباهُ، أَي: في صِغَرِه، والصَّبيُّ: مِنْ لَدُنْ يولَد إلى أَنْ يُفْطَم[3]، وقيل الصَّبيُّ: من لم يبلغ الحُلُمَ[4]، وقيل: يبقى الطِّفلُ يسمّى طفلًا حتى يميِّزَ، ثمَّ لا يُقال له بعد ذلك: طفلٌ بل صبيٌّ[5].

وقد استعملَ القرآنُ لفظ الطِّفل والأطفال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ [غافر: 67]، وفي هذين الموضعين يدلُّ على معنى الصِّغر ونعومة الجسم، وفي سورة النّور استعمل القرآن لفظَ الطِّفل في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31]، والطِّفل هنا الصَّغير الذي لا يدري ما ثمَّ لصغره[6]، وهذا يكون دون سنِّ التمييز.

واستُعمِلَ لفظ (صبي) في موضعين: في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، وقد روي عن ابن عباس أنَّه كان ابن سبع سنين[7]، وهو سنُّ التمييز، وأمّا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 29]؛ فقد قيَّده بكونه في المهد صبيًّا؛ كي لا يُفهمَ منه أنَّه كان مميِّزًا.

فالطِّفلُ: هو الولدُ الصغير ما دام ناعمًا، ولم يبلُغْ سنَّ التَّمييز، والصَّبيُّ: هو الولد المميِّز، والغلامُ: هو الولد الذي نبتَ شاربه، وقاربَ سنَّ البلوغ؛ لأنَّه بلغَ حالةَ الرغبة في الأنثى، هذا هو الغالب في الاستعمال اللُّغوي، وأمّا الاستعمال القرآنيُّ؛ فيستعمل اللَّفظ بحسب السياقِ، ولنكتةٍ تكون فيه.

الاستئذان والاستئناس:

يتقاربُ لفظا الاستئذان والاستئناس في معنى الإعلام، واستعملهما القرآنُ الكريم

(1) أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبي)، وابن منظور، لسان العرب: (صبا).
(4) الراغب، المفردات، ص: 475.
(5) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 227.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 164.
(7) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 7/ 245.

في أدبِ المعاشرة والمخالطة بين الناس ودخول البيوت، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: 27]، ومع هذا التَّقارب فإنَّ هناك فرقًا بين اللَّفظين، وإيضاح ذلك: أنَّ أصلَ الاستئذانِ يدلُّ على العِلْم والإعلام، يُقال: آذَنَني فلان: أعلمني[1]، والإِذْنُ: الإطلاقُ في الفِعْلِ، ويكون الأَمرُ إِذْنًا، وكَذلِكَ الإرادَة، وقيل الإذن: هوَ فكُّ الحَجْرِ، وإِطْلاقُ التَّصرُّف لِمَنْ كانَ مَمنوعًا شَرْعًا، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ لهُ فعلَهُ، وأَذِنَ لَهُ في الشَّيءِ، أَباحَهُ لَهُ[2]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازتهِ والرُّخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[3].

الاستئذانُ: هو طلبُ الإذنِ مطلقًا، والاستئناسُ: طلبهُ بعد الشُّعور بالأُنسِ

وأصلُ الاستئناس يدلُّ على ظهورِ شيءٍ، وكلُّ شيء خالفَ طريقةَ التوحُّش[4]، وآنَسَ الشَّيءَ: أَحَسَّه وعلمه، واستأنستُ: استعلمتُ، وآنَسَ الشَّخْصَ، واسْتَأْنَسَهُ: رَآهُ، وأَبصرَهُ، ونَظَرَ إليه، وقيل: الاستئناسُ: الاستئذانُ، ومَعْنَى ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: فتَعَلَموا أَيريد أَهلُها أَن تَدْخُلوا أَم لا؟[5].

فيشتركُ الاستئذانُ والاستئناس بمعنى طلب السَّماح، فأمّا الاستئذانُ؛ فيكون طلبًا صريحًا في الإذن والإباحة والرُّخصة، وأمّا الاستئناسُ؛ فهو أنْ تطلبوا الأُنسَ بكم، أي: تطلبوا أنْ يأنسَ بكم صاحب البيت، وأُنسه به بانتفاءِ الوحشة والكراهية، وهذه كناية لطيفةٌ عن الاستئذان، أي: أنْ يستأذنَ الداخلُ، أي: يطلب إذنًا من شأنه ألّا يكون معه استيحاشُ ربِّ المنزل بالدّاخل[6]، أي: ينفردُ الاستئناسُ بمعنى طلبِ الأُنس وعدمِ الوحشة والنُّفور، فيكون فيه تلطُّفٌ في الطَّلب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(2) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(3) الراغب، المفردات، ص: 71.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 197.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»